

غَزْوَةُ مُؤْتَةَ (١)

تَارِيخُ الْغَزْوَةِ وَأَسْبَابُهَا :

قال الإمام ابن القيم رحمة الله: وهى بأدنى البلقاء من أرض الشام وكانت فى جمادى الأولى سنة ثمان ، وكان سيها أن رسول الله ﷺ بعث الحارث بن عمير الأزدي أحد بنى هب بكتابه إلى الشام إلى ملك الروم أو بصرى فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فأوثقه رباطاً ثم قدمه فضرب عنقه ، ولم يقتل لرسول الله ﷺ غيره ، وكان قتل السفراء والرسول من أشنع الجرائم ، يساوى بل يزيد عن إعلان حالة الحرب ؛ فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ حين نقلت إليه الأخبار ، فجهز إليهم جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل ، وهو أكبر جيش إسلامى لم يجتمع قبل ذلك إلا فى غزوة الأحزاب (٢) .

تَعْيِينَ قَادَةِ الْجَيْشِ وَوَصِيَّةَ الرَّسُولِ ﷺ إِلَيْهِمْ :

أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ مُؤْتَةَ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «إِنْ قُتِلَ زَيْدٌ فَجَعْفَرٌ وَإِنْ قُتِلَ جَعْفَرٌ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ» قَالَ عَبْدُ اللَّهِ كُنْتُ فِيهِمْ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ فَالْتَمَسْنَا جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ فَوَجَدْنَاهُ فِي الْقَتْلَى وَوَجَدْنَا مَا فِي جَسَدِهِ بَضْعًا وَتَسْعِينَ مِنْ طَعْنَةٍ وَرَمِيَّةٍ ، وَقَدْ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْجَيْشَ الْإِسْلَامِيَّ أَنْ يَأْتُوا الْمَكَانَ الَّذِي قُتِلَ فِيهِ الْحَارِثُ بْنُ عَمِيرٍ ، وَأَنْ يَدْعُوا مَنْ كَانَ هُنَاكَ إِلَى الْإِسْلَامِ ، فَإِنْ أَجَابُوا وَإِلَّا اسْتَعَانُوا بِاللَّهِ عَلَيْهِمْ وَقَاتَلُوهُمْ .

وقد أوصى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَرَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَبِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا وَقَالَ : «اغْزُوا بِسْمِ اللَّهِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ اغْزُوا وَلَا تَغْدِرُوا وَلَا تَغْلُوا وَلَا تُمَثِّلُوا وَلَا تُقَتِّلُوا وَلَيْدًا وَلَا امْرَأَةً وَلَا كَبِيرًا فَانِيًا وَلَا مَنَعَزَلًا بِصُومَعَةٍ وَلَا تَقْرَبُوا نَخْلًا وَلَا تَقْطَعُوا شَجَرًا وَلَا قَدَمُوا بَنَاءً وَإِذَا لَقِيتُمْ عَدُوَكُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُوهُمْ إِلَى إِحْدَى ثَلَاثَ : فإِذَا الْإِسْلَامَ وَإِذَا الْجَزْيَةَ وَإِذَا الْحَرْبَ» (٣) .

(١) أطلق عليها عامة علماء السيرة اسم الغزوة ؛ لكثرة عدد المسلمين فيها ، ولما لها من أهمية بالغة ، ولكنها فى الحقيقة ليست بغزوة ، وإنما هى سرية ؛ لأن النبي ﷺ لم يخرج معهم .

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ٥٢٦ .

(٣) السيرة النبوية للصلاحي (٢ / ٤٢٨ - ٤٢٩) .

وَدَاعُ الْجَيْشِ الْإِسْلَامِيِّ وَبُكَاءُ ابْنِ رَوَاحَةَ:

لما تجهز الجيش وأتم استعداداه توجه الرسول ﷺ والمسلمون يودعون الجيش ، ويرفعون أكف الدراعة لله - عز وجل - أن ينصر إخوانهم المجاهدين ، لقد سلموا عليهم وودعهم بهذا الدعاء : دفع الله عنكم ، وردكم صالحين غانمين .

ولما ودع الناس عبد الله بن رواحة وسلموا عليه بكى وانهمرت الدموع من عينيه ساخنة غزيرة ، فتعجب الناس من ذلك وقالوا : ما يبكيك يا ابن رواحة؟ فقال : والله ما بى حب الدنيا وصباية ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله ، يذكر فيها النار : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ (٧١) [مریم: ٧١] فلست أدرى كيف بى بالصدر بعد الورود؟ فقال لهم المسلمون : صحبكم الله ودفع عنكم ، وردكم إلينا صالحين فقال عبد الله بن رواحة :

لكننى أسأل الرحمن مغفرة	وضربة ذات فراغ تقذف الزبداء
أو طعنه بيدي حرّان مُجهّزة	بحربة تنفذ الأحشاء والكبداء
حتى يقولوا إذا مروا على جدثي	أرشده الله من غارٍ وقد رشدا ^(١)

تَخَلُّفُ ابْنِ رَوَاحَةَ:

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ فِي سَرِيَّةٍ فَوَافَقَ ذَلِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَعَدَا أَصْحَابُهُ فَقَالَ اتَّخَلَّفُ فَأُصَلِّيَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ أَلْحَقَهُمْ فَلَمَّا صَلَّى مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَأَاهُ فَقَالَ : « مَا مَنَعَكَ أَنْ تُغْدُوَ مَعَ أَصْحَابِكَ؟ » فَقَالَ : أَرَدْتُ أَنْ أُصَلِّيَ مَعَكَ ثُمَّ أَلْحَقَهُمْ قَالَ : « لَوْ أَلْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَذْرَكْتُ فَضْلَ غَدْوَتِهِمْ » .

ثم إن القوم تهيأوا للخروج فأتى عبد الله بن رواحة رسول الله ﷺ يودعه فقال :	يثبت الله ما أتاك من حُسن
تثبت موسى ونصرًا كالذى نصرُوا	إني تفرست فيك الخير نافلة
فراصة خالفتهم في الذى نظروا	أنت الرسول فمن يُحرم نوافله
والوجه منه فقد أزرى به القدر ^(٢)	تَحَرُّكُ الْجَيْشِ الْإِسْلَامِيِّ وَوُصُولُهُ مَعَانَ:

ثم خرج القوم وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا ودعهم وانصرف عنهم ، قال عبد الله

(١) السيرة النبوية للصلاحي (٢ / ٤٢٩) .

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ٥٢٧ - ٥٢٨ .

بن رواحة :

خَلَفَ السَّلامَ عَلَى امْرِئٍ وَدَعَتْهُ فِي السَّنَخْلِ خَيْرَ مَشِيعٍ وَخَلِيلٍ
ثُمَّ مَضُوا حَتَّى نَزَلُوا مَعَانَ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ فَبَلَغَ النَّاسُ أَنْ هَرَقَلَ قَدْ نَزَلَ مَأْبَ ، مِنْ
أَرْضِ الْبَلْقَاءِ فِي مِائَةِ أَلْفٍ مِنَ الرُّومِ ، وَانْضَمَّ إِلَيْهِمْ مِنْ لَحْمٍ وَجِذَامٍ وَالْقَيْنَ وَبَهْرَاءَ وَبَلِيٍّ
مِائَةِ أَلْفٍ مِنْهُمْ .

فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ الْمُسْلِمِينَ أَقَامُوا عَلَى مَعَانَ لَيْلَتَيْنِ ؛ يَفْكُرُونَ فِي أَمْرِهِمْ وَقَالُوا : نَكْتُبُ
إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَنُخْبِرُهُ بَعْدَ عَدُونَا ؛ فِيمَا أَنْ يَمْدُنَا بِالرِّجَالِ ، وَإِنَّمَا أَنْ يَأْمُرَنَا بِأَمْرِهِ
فَنَمْضِي لَهُ .

فَشَجَعَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ النَّاسَ وَقَالَ : يَا قَوْمَ وَاللَّهِ إِنْ التَّمَّى تَكْرَهُونَ لِلَّتِي خَرَجْتُمْ
تَطْلُبُونَ : الشَّهَادَةَ ، وَمَا نَقَاتِلُ النَّاسَ بَعْدَ وَلَا بِقُوَّةٍ وَلَا كَثْرَةٍ ، مَا نَقَاتِلُهُمْ إِلَّا بِهَذَا الدِّينِ
الَّذِي أَكْرَمَنَا اللَّهُ بِهِ فَانْطَلِقُوا ؛ فَإِنَّمَا هِيَ إِحْدَى الْحُسَيْنِ ، إِذَا ظَهَرَ ، وَإِنَّمَا شَهَادَةٌ ، فَمَضَى
النَّاسُ إِلَى مَا دَعَا إِلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ ^(١) .

الْجَيْشُ الْإِسْلَامِيُّ يُتَحَرَّكُ نَحْوَ الْعَدُوِّ :

وَحِينَئِذٍ بَعْدَ أَنْ قَضَى الْجَيْشُ الْإِسْلَامِيُّ لَيْلَتَيْنِ فِي مَعَانَ تَحَرَّكُوا إِلَى أَرْضِ ، حَتَّى
لَقِيتَهُمْ جُمُوعُ هَرَقَلَ بِقَرْيَةٍ مِنْ قَرْيِ الْبَلْقَاءِ يُقَالُ لَهَا : مُشَارَفَ ، ثُمَّ دَنَا الْعَدُوَّ وَانْحَازَ
الْمُسْلِمُونَ إِلَى مُؤْتَةَ فَعَسَكُوا هُنَاكَ وَتَعَبُوا لِلْقِتَالِ ، فَجَعَلُوا عَلَى مِيمَتِهِمْ قُطْبَةَ بْنِ قَتَادَةَ
الْعَذْرَى ، وَعَلَى الْمِيسِرَةِ عَبَادَةَ بْنِ مَالِكِ الْأَنْصَارِيِّ ^(٢) .

بِدَايَةُ الْقِتَالِ وَتَنَاقُوبُ الْقَوَادِ :

وَهُنَاكَ فِي مُؤْتَةَ التَّقَى الْفَرِيقَانِ ، وَبَدَأَ الْقِتَالُ الْمُرِيرَ ثَلَاثَةَ أَلْفِ رَجُلٍ يُوَاجِهُونَ
هَجْمَاتٍ مَائَتِي أَلْفٍ مِقَاتِلَ ، مَعْرَكَةٌ عَجِيبَةٌ تَشَاهِدُهَا الدُّنْيَا بِالْهَشَةِ وَالْحَيْرَةِ ، وَلَكِنْ إِذَا
هَبَتْ رِيحُ الْإِيمَانِ جَاءَتْ بِالْعَجَائِبِ .

أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجَعَلَ يُقَاتِلُ بِضِرَاوَةٍ بِالْغَةِ وَبِسَالَةٍ ؛ لَا
يُوجَدُ لَهَا نَظِيرٌ إِلَّا فِي أَمْثَالِهِ مِنْ أَبْطَالِ الْإِسْلَامِ ، فَلَمْ يَزَلْ يُقَاتِلُ وَيُقَاتِلُ ؛ حَتَّى شَاطَ فِي

(١) ابن هشام (٢ / ١٢٠ - ١٢١) .

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ٥٢٩ .

رماح القوم وخر صريعاً ، وحينئذ أخذ الراية جعفر بن أبي طالب وطلق يقاتل قتالاً متقطع النظر ؛ حتى إذا أرققه القتال اقتحم عن فرسه الشقراء فعقرها ، ثم قاتل حتى قطعت يمينه ، فأخذ الراية بشماله ولم يزل بها حتى قطعت شماله ، فاحتضنها بعضديه فلم يزل رافعاً إياها ؛ حتى قتل ، يقال : إن رومياً ضربه ضربة قطعتة نصفين ، وأثابه الله بجناحيه جناحين في الجنة يطير بهما حيث يشاء ؛ ولذلك سمي : جعفر الطيار ، وجعفر ذى الجناحين .

وقد استشهد وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، ولقد أثنى - رضى الله عنه - بالجراح إذا بلغ عدد جراحه بضعا وتسعين بين طعنة برمح أو ضربة بسيف أو رمية بسهم ، وليس من بينها جرح في ظهره بل كلها في صدره .

روى البخاري في صحيحه بإسناده إلى ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ مُؤْتَةَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «إِنْ قُتِلَ زَيْدٌ فَجَعْفَرٌ وَإِنْ قُتِلَ جَعْفَرٌ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ» قَالَ عَبْدُ اللَّهِ : كُنْتُ فِيهِمْ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ فَالْتَمَسْنَا جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ فَوَجَدْنَاهُ فِي الْقَتْلِ وَوَجَدْنَا مَا فِي جَسَدِهِ بَضْعًا وَتِسْعِينَ مِنْ طَعْنَةٍ وَرَمِيَةٍ .

وبعد استشهد جعفر أخذ الراية عبد الله بن رواحة ، وتقدم بها وهو على فرسه فجعل يستنزل نفسه ، ويتردد بعض التردد ثم قال :

أقسمت يا نفس لتنزلنه	لتنزلنه أو لتكسرهنه
إن أجلب ^(١) الناس وشدوا الرئة ^(٢)	ما لي أراك تكسرين الجنة
قد طبال ما قد كنت مطمئنة	هل أنت إلا نطفة في شنة

وقال أيضاً :

يا نفس إلا تقتلى تموتى	هذا هام الموت قد صليت
وما تميت فقد أعطيت	إن تفعلنى فغلها هـديت

ثم نزل فاتاه ابن عم له بعرق من لحم فقال : شد بهذا صلبك ؛ فإنك قد لقيت فى أيامك هذه ما لقيت ، فأخذه من يده فانتهى منه نهسة ، ثم ألقاه من يده ثم أخذ سيفه

(١) أجب الناس : صاحوا واجتمعوا .

(٢) الرئة : صوت ترجيع شبه البكاء .

فتقدم فقاتل حتى قتل .

وحينئذ تقدم رجل من بنى عجلان اسمه: ثابت بن أقرم ؛ فأخذ الراية وقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم ، قالوا: أنت ، قال: ما أنا بفاعل ، فاصطليح الناس على خالد بن الوليد فلما أخذ الراية قاتل قتالاً مريراً ، فقد روى البخارى عن خالد بن الوليد قال: لقد انقطعت فى يدى يوم مؤتة تسعة أسياف ، فما بقى فى يدى إلا صفيحة يمانية ، وفى لفظ آخر: لقد دق فى يدى يوم مؤتة تسعة أسياف ، وصبرت فى يدى صفيحة لى يمانية^(١) .

النَّبِيُّ ﷺ يَنْعَى الْقَادَةَ الثَّلَاثَةَ لِلنَّاسِ:

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَعَى زَيْدًا وَجَعْفَرًا وَأَبْنَ رَوَاحَةَ لِلنَّاسِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ خَبَرُهُمْ فَقَالَ : «أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأَصِيبَ ثُمَّ أَخَذَ جَعْفَرٌ فَأَصِيبَ ثُمَّ أَخَذَ ابْنُ رَوَاحَةَ فَأَصِيبَ وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ حَتَّى أَخَذَ سَيْفٌ مِنْ سِوْفِ اللَّهِ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ»^(٢) .
ذَكَاءُ وَفُطْنَةُ خَالِدٍ:

لقد نجح خالد فى الصمود أمام جيش الرومان طول النهار فى أول يوم من القتال ، وكان يشعر بمسيس من الحاجة إلى مكيدة حربية تلقى الرعب فى قلوب الرومان ؛ حتى ينجح فى الانحياز بالمسلمين من غير أن يقوم الرومان بحركات المطاردة ، فقد كان يعرف حينئذ أن الإفلات من براثنهم صعب جداً ، لو انكشف المسلمون وقام الرومان بالمطاردة .

فلما أصبح اليوم الثانى غيّر أوضاع الجيش ، وعبأه من جديد فجعل مقدمته ساقه وميمينته ميسرته ، وعلى العكس فلما رآها الأعداء أنكروا حالهم ، وقالوا : جاءهم مدد فرعبوا ، وصار خالد - بعد أن تراءى الجيشان وتناوشا ساعة - يتأخر المسلمون قليلاً قليلاً مع حفظ نظام جيشه ، ولم يتبعهم الرومان ظناً منهم أن المسلمين يخدعونهم ، ويحاولون القيام بمكيدة ترمى بهم فى الصحراء .

وهكذا انحاز العدو إلى بلاده ، ولم يفكر فى القيام بمطاردة المسلمين ، ونجح المسلمون

(١) الرحيق المختوم ٣٣٥ - ٣٣٦ ، السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٤٣٠ - ٤٣٢) .

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ٥٣١ .

فِي الْإِنْخِيازِ سَالِمِينَ حَتَّى عَادُوا إِلَى الْمَدِينَةِ^(١) .

قَتْلَى الْقَرِيْقَيْنِ:

وَاسْتَشْهَدَ يَوْمَئِذٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا ، أَمَّا الرُّومَانُ فَلَمْ يَعْرِفْ عَدَدَ قَتْلَاهُمْ ؛
غَيْرَ أَنَّ تَفْصِيلَ الْمَعْرَكَةِ يَدُلُّ عَلَى كَثْرَتِهِمْ^(٢) .

مَوْقِفُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مِنَ الْجَيْشِ:

لَمَّا دَنَا الْجَيْشُ مِنْ حَوْلِ الْمَدِينَةِ تَلَقَّاهُمُ الرَّسُولُ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ ، وَلَقِيَهُمُ الصَّبِيَّانِ
يَسْتَنْدُونَ وَرَسُولَ اللَّهِ ﷺ مُقْبِلَ مَعَ الْقَوْمِ عَلَى دَابَّةٍ فَقَالَ : « خَذُوا الصَّبِيَّانِ فَاحْمِلُوهُمَا ،
وَأَعْطُوْنِي ابْنَ جَعْفَرٍ » فَاتَى بِعَبْدِ اللَّهِ فَأَخَذَهُ ، فَحَمَلَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَجَعَلَ النَّاسُ يَحْثُونَ عَلَى
الْجَيْشِ التَّرَابَ ، وَيَقُولُونَ : يَا فِرَارَ فِرَرْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ فَقَالَ ﷺ : « لَيْسُوا بِالْفِرَارِ ،
وَلَكِنَّهُمُ الْكِرَارُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ »^(٣) .

الدُّرُوسُ الْمُسْتَفَادَةُ:

تَنْطَوِي هَذِهِ الْغَزْوَةُ عَلَى الْعَدِيدِ مِنَ الدُّرُوسِ وَالْعِبَرِ مِنْهَا مَا يَلِي :

١ - إِنْ هَذِهِ الْمَعْرَكَةُ وَإِنْ لَمْ يَحْصُلْ بِهَا الْمُسْلِمُونَ عَلَى الثَّأْرِ ؛ لَكِنَّهَا كَانَتْ كَبِيرَةً الْآثَرِ
لِسَمْعَةِ الْمُسْلِمِينَ ، إِنَّهَا أَلْقَتْ الْعَرَبَ كُلَّهَا فِي الدَّهْشَةِ وَالْحَيْرَةِ ، فَقَدْ كَانَ الرُّومَانُ أَكْبَرَ
وَأَعْظَمَ قُوَّةً عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ، وَكَانَتْ الْعَرَبُ تَظُنُّ أَنَّ مَعْنَى جَلَادِهَا هُوَ الْقَضَاءُ عَلَى
النَّفْسِ فَكَانَ لِقَاءُ هَذَا الْجَيْشِ الصَّغِيرِ ثَلَاثَةَ آلَافٍ مَقَاتِلَ - مَعَ ذَلِكَ الْجَيْشِ الضَّخْمِ -
مِائَتًا أَلْفَ مَقَاتِلَ ، ثُمَّ الرَّجُوعُ عَنِ الْغَزْوِ مِنْ غَيْرِ أَنَّ تَلْحَقَ بِهِ خَسَارَةٌ تُذَكَّرُ ، كَانَ كُلُّ ذَلِكَ
مِنْ عَجَائِبِ الدَّهْرِ ، وَكَانَ يُؤَكِّدُ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ مِنْ طَرَازٍ آخَرَ غَيْرَ مَا أَلْفَتْهُ الْعَرَبُ وَعَرَفَتْهُ ،
وَأَنَّهُمْ مُؤَيَّدُونَ وَمَنْصُورُونَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَأَنَّ صَاحِبَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا ، وَلِذَلِكَ نَرَى
الْقَبَائِلَ اللَّدُودَةَ الَّتِي كَانَتْ لَا تَزَالُ تَثُورُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، جَنَحَتْ بَعْدَ هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ إِلَى
الْإِسْلَامِ فَأَسْلَمَتْ بَنُو سُلَيْمٍ ، وَأَشْجَعُ وَغُطْفَانُ وَذُبْيَانُ وَفَزَارَةُ وَغَيْرُهَا .

وَكَانَتْ هَذِهِ الْمَعْرَكَةُ بِدَايَةِ الْمُلْقَاءِ الدَّامِيِّ مَعَ الرُّومَانِ ، فَكَانَتْ تَوَظُّنَةً تَهْمِيدًا لِفَتْوحِ

(١) سيرة الرسول أبو عمار ص ٥٣٢ .

(٢) الرحيق المختوم ص ٣٣٧ .

(٣) ابن هشام ٢ / ١٢٦ .

البلدان الرومانية ، واحتلال المسلمين الأراضي البعيدة النائية ^(١) .

٢- إن أهم ما يثير الدهشة فى هذه الغزوة ، تلك النسبة الكبيرة من الفرق بين عدد المسلمين فيها وعدد مقاتليهم من الرومان والمشرىين والعرب! .

لقد رأيت أن عدد المشرىين ومن معهم من الروم ، قد بلغ ما يقرب من مائتى ألف مقاتل! على حين أن عدد المسلمين لم يتجاوز ثلاثة آلاف مقاتل ، ومعنى ذلك أن عدد المشرىين والروم قد بلغوا ما لا يقل عن خمسين ضعفاً من عدد المسلمين! .

وهى نسبة إذا ما تصورتها تجعل رقعة الجيش الإسلامى أمام حشود الروم والمشرىين أشبه ما تكون بساقية ماء صغيرة بالنسبة إلى بحر خضم مائج ، هذا إلى ما كان قد جهز به جيش الأعداء من العدة والذخيرة والسلاح ومظاهر الأبهة والبذخ ، على حين أن المسلمين كانوا يعانون من القلة والفقرا! .

ومكان الدهشة فى الأمر أن تجدد المسلمين بعد هذا كله - وهم سرية ليس فيها رسول الله ﷺ - مقبلين غير مدبرين لا يقيمون لكل هذه الحشود الهائلة أمامهم وزنا ، مع أنها - فيما يبدو- لو التفتت من حولهم وطوقتهم من جهاتهم ، لانقلبوا إلى ما يشبه نواة صغيرة فى جوف قطعة أرض سوداء .

ثم إن مكان الدهشة بعد ذلك أن يصمد المسلمون لقتال هذا اليم المتلاطم ، يقتل أميرهم الأول ثم الثانى فالثالث ، وهم يقتحمون أبواب الشهادة فى نشوة بالغة وإقبال عجيب ؛ حتى يدخل الرعب الإلهى فى أفئدة كثيرة من المشرىين ، دون أن يكون له سبب ظاهر ، فينكشفون عن مواقعهم ويدبر منهم الكثير وتُقتل منهم خلائق لا تكاد تحصى! .

ولكن الدهشة كلها تزول ، والعجب ينتهى ، إذا تذكرنا ما يفعله الإيمان بالله والاعتماد عليه واليقين بوعده .

بل إن المدهش بالنسبة للمسلمين أن لا يكونوا كذلك ، والعجيب فيهم حقاً أن يكونوا مسلمين ثم يكون لأرقام العدد والعدة حساب مع ذلك فى أفكارهم ، إلى جانب ما وعد الله به من نصر وتأيد أو جنة ونعيم خالدين! فالمسلمون - كما قال عبد الله بن رواحة رضى الله عنه- لا يقاتلون بعدد ولا قوة ولا كثرة ، وإنما يقاتلون بهذا الدين الذى

(١) الرحيق المختوم ٣٣٧ - ٣٣٨ .

أكرمهم الله به^(١) .

٣- تمتاز هذه المعركة عن سائر المعارك ، بأنها المعركة الوحيدة التي جاء خبرها من السماء ؛ إذ نعى النبي ﷺ استشهاد الأبطال الثلاثة قبل أن يصل الخبر من أرض المعركة ، بل أخبر النبي ﷺ عن أحداثها وتماز أيضاً عن غيرها بأنها الواقعة الوحيدة التي اختار النبي ﷺ لها ثلاثة أمراء على الترتيب زيد بن حارثة ، جعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن رواحة^(٢) .

٤- لقد رأيت النبي ﷺ نعى لأصحابه زيداً وجعفر بن رواحة ، وعيناه تذرفان وبين رسول الله ﷺ وبينهم مسافات شاسعة بعيدة! .

وهذا يدل على أن الله - تعالى- قد روى لرسوله الأرض ، فأصبح يرى من شأن المسلمين الذين يقاتلون على مشارف الشام ما حدث أصحابه به ، وهي من جملة الخوارق الكثيرة التي أكرم بها حبيبه ﷺ كما يدل هذا الحديث نفسه على مدى شفقتة ﷺ على أصحابه ، فلم يكن شيئاً قليلاً أن يبكي رسول الله ﷺ وهو واقف في أصحابه ؛ يحذتهم عن خبر هؤلاء الشهداء ويكأه ﷺ عليهم لا يتنافى مع الرضى بقضاء الله تعالى وقدره ، فإن العين لا تدمع والقلب ليحزن كما قال ﷺ ، وتلك رقة طبيعية ورحمة فطر الله الإنسان عليها^(٣) .

٥- نرى في موقف الصحابي الجليل ثابت بن أكرم العجلاني ، عندما أخذ اللواء بعد استشهاد بن رواحة آخر الأمراء درساً عظيماً يقدمه لنا ، ففي ذلك أداء منه للواجب ؛ لأن وقوع الراية معناه: هزيمة الجيش ، ثم نادى المسلمين أن يختاروا لهم قائداً ، وفي زحمة الأحداث قالوا: أنت ، قال: ما أنا بفاعل ، فاصطلح الناس على خالد .

ولم يقبل ثابت قول المسلمين: أنت أميرنا ، ذلك أنه يرى فيهم من هو أكفأ منه لهذا العمل ، وحينما يتولى العمل من ليس له بأهل ؛ فإن الفساد متوقع ، والعمل حينما يكون لله - تعالى- لا يكون فيه أثر لحب الشهرة أو حظ النفس^(٤) .

٦- ومن الدروس الغالية للأمة أن شجاعة المسلمين وبسالتهم في هذه المعركة بلغنا حدّاً لم تعرفه أمة معاصرة ، وقد أكسبهم هذا الروح العالي ؛ إقداماً حقر أمامهم كبرياء

(١) فقه السيرة للبوطي ٢٧٣ - ٢٧٤ .

(٢) السيرة النبوية للصلاحي (٢ / ٤٣٥) .

(٣) فقه السيرة للبوطي ص ٢٧٥ .

(٤) السيرة النبوية للصلاحي (٢ / ٤٣٧) .

الأمم التي عاشت مع التاريخ دهرًا ، تصول وتحوّل لا يقفها شيء .

إن الاستهتار بالخطر والطيران إلى الموت ليس فروسية احتكرها الرجال المقاتلون وحدهم ، بل هي قوة غامرة قاهرة تعدت الرجال إلى الأطفال ؛ فأصبحت الأمة كلها أمة كفاح غال عزيز ، وحسبك أن جيش "مؤتة" لما عاد إلى المدينة قابله الصبية بصيحات الاستنكار يقولون: يا فرار فررتم في سبيل الله ، إن أولئك الصغار الأغرار ، يرون انسحاب خالد ومن معه فرارًا يقابل بجثو التراب ، أى جيل قوى نابه هذا الجيل الذى صنعه الإيمان بالحق؟ أى نجاح بلغته رسالة الإسلام فى صياغة أولئك الأطفال العظام من آباؤهم؟ من أمهاتهم؟ كيف كان الأباء يربون؟ وكيف كانت الأمهات يدللن؟ .
إن مسلمة اليوم بحاجة ماسة إلى أن تعرف هذه الدروس^(١) .

٧- وفى النهاية لا بد أن نعرف أن النصره كانت ملازمة لأصحاب النبى ﷺ على الرغم من قلة عددهم وعدتهم ؛ لأنهم كانوا يتحركون بعقيدة أشد رسوخًا من الجبال الراسيات ، أما نحن لما تركنا أصل عزنا ونبع شرفنا ومعين كرامتنا وضعفت العقيدة فى قلوبنا ، وإذا اليهود الأقدار يسفكون دماءنا ، ويتهكون أعراضنا ومقدساتنا على الرغم من قلة عددهم وكثرة عددنا .

وهكذا كما أخبر النبى ﷺ حيث قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكْلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا» فَقَالَ قَائِلٌ: «وَمِنْ قَلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟» قَالَ: «بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غَنَاءٌ كَفَثَاءُ السَّبِيلِ وَلَنَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَذْرَاكُمْ الْأُمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْدِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ فَقَالَ قَائِلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ قَالَ حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ» .

فيا ليتنا نأخذ العبرة والعظة من غزوة مؤتة ؛ لنعود إلى العقيدة الصافية التى كانت بإذن الله سببًا فى نصره أصحاب النبى ﷺ وستكون سببًا لنصرتنا ، إذا عادت الأمة إلى الله - عز وجل - وتمسكت بتلك العقيدة الراسخة^(٢) .

(١) سيرة الرسول أبو عمار ٥٣٣ - ٥٣٤ .

(٢) المصدر السابق ٥٣٦ .

سَرِيَّةُ ذَاتِ السَّلَاسِلِ

لما علم رسول الله ﷺ بموقف القبائل العربية التي تقطن مشارف الشام في معركة مؤتة من اجتماعهم إلى الرومان ضد المسلمين ، شعر بمسئولية الحاجة إلى القيام بحكمة بالغة ، توقع الفرقة بينهما وبين الرومان وتكون سبباً للاتلاف بينها وبين المسلمين ؛ حتى لا تتحشد مثل هذه الجموع الكبيرة مرة أخرى .

واختار لتنفيذ هذه الخطة عمرو بن العاص ؛ لأن أم أبيه كانت امرأة من بليّ ، فبعثه إليهم في جمادى الآخرة سنة ٨هـ على إثر معركة مؤتة ؛ ليستألفهم ويقال: بل نقلت الاستخبارات أن جمعاً من قضاة قد تجمعوا ، يريدون أن يدنوا من أطراف المدينة فبعثه إليه ، ويمكن أن يكون السبب اجتماعاً معاً .

وعقد رسول الله ﷺ لعمرو بن العاص لواء أبيض ، وجعل معه راية سوداء ، وبعثه في ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار ، ومعهم ثلاثون فرساً ، وأمره أن يستعين بمن مر به من بليّ وعذرة وبلقين .

فسار الليل وكمّن النهار ، فلما قرب من القوم بلغه أن لهم جمعاً كثيراً فبعث رافع بن مكيث الجهني إلى رسول الله ﷺ يستمده ، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح في مائتين ، وعقد له لواء وبعث له سراة المهاجرين والأنصار - فيهم أبو بكر وعمر - وأمره أن يلحق بعمرو أن يكون جميعاً ، ولا يختلفا فلما لحق به أراد أبو عبيدة أن يؤم الناس فقال عمرو: إنما قدمت عليّ مدداً ، وأنا الأمير فأطاعه أبو عبيدة فكان عمرو يصلى بالناس^(١) .

وقاتل المسلمين الكفار وتوغل عمرو في ديار قضاة التي هربت وتفرقت وانهزمت ، ونجح عمرو في إرجاع هبة الإسلام لأطراف الشام وإرجاع أحلاف المسلمين لصداقتهم الأولى ، ودخول قبائل أخرى في حلف المسلمين ، وإسلام الكثيرين من بنى عبس وبنى مرة وبنى ذبيان ، وكذلك فزارة وبنى سليم وبنى أشجع ، وأصبح المسلمون هم الأقوى في شمال بلاد العرب^(٢) .

وقيل: إنها سميت ذات السلاسل ؛ لأن المشركين ارتبط بعضهم إلى بعض بالسلاسل ؛ مخافة أن يفروا ، وقيل: لأن بها ماء يقال له: السلسل ، وقال ابن سعد: إنها

(١) الرحيق المختوم ص ٣٣٨ .

(٢) السيرة النبوية للصلاحي (٢ / ٤٤١) .

وراء وادى ذي القرى وبينها ومن المدينة عشرة أيام^(١).

الدَّرْسُ الْمُسْتَفَادُ مِنَ السَّرِيَّةِ:

الدرس الذى نستفيدة من هذه السرية ، أنه عندما وصل المدد الذى بعثه رسول الله ﷺ بقيادة أبى عبيدة بن الجراح لجيش عمرو فى ذات السلاسل ، أراد أبو عبيدة أن يؤم الناس وينقدم عمرو ، فقال له عمرو: إنما قدمت عليّ مدداً لى ، وليس لك أن تؤمنى ، وأنا الأمير وإنما أرسلك النبى ﷺ إليّ مدداً ، فقال المهاجرون: كلا بل أنت أمير أصحابك وهو أمير أصحابه ، فقال عمرو: لا بل أنتم مدد لنا ؛ فلما رأى أبو عبيدة الاختلاف ، وكان حسن الخلق لين الطبع قال: لتطمئن يا عمرو ، وتعلمن أن آخر ما عهد إليّ رسول الله ﷺ : «إذا قدمت على صاحبك فتطاوعا ولا تختلفا» وإنك والله إن عصيتنى لأطيعنك ، فإطاع أبو عبيدة فكان عمرو يصلى بالناس .

لقد أدرك أبو عبيدة - رضى الله عنه - أنّ أي اختلاف بين المسلمين فى سرية ذات السلاسل ، يؤدى إلى الفشل ، ومن ثم تغلب العدو عليهم ، ولهذا سارع إلى قطع النزاع وانضم جندياً تحت امرأة عمرو بن العاص امتثالاً لأمر الرسول ﷺ : «لا تختلفا»^(٢) فيا ليتنا نمثل لأمر الرسول ﷺ ولا تختلف .

سَرِيَّةُ أَبِي قَتَادَةَ إِلَى خَضْرَةَ:

كانت هذه السرية فى شعبان سنة ٨هـ وذلك ؛ لأن بنى غطفان كانوا يحشدون فى خضرة ، وهى أرض مُحَارَب بنجد - فبعث إليهم رسول الله ﷺ أبا قتادة فى خمسة عشر رجلاً فقتل منهم وسبى وغنم ، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة^(٣) .

فَتْحُ مَكَّةَ

تَارِيخُ الْغَزْوَةِ وَأَسْبَابُهَا:

كانت غزوة فتح مكة فى شهر رمضان سنة ٨هـ^(٤) .

وسببها: أن بنداً من بنود معاهدة الحديبية يفيد أن من أحب أن يدخل فى عقد

(١) سيرة الرسول أبو عمار ص ٥٣٧ .

(٢) السيرة النبوية للصلاحي (٢ / ٤٤٢) .

(٣) الرحيق المختوم ص ٣٣٩ .

(٤) فقه السيرة للبوطي ص ٢٧٦ .

محمد ﷺ وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه ، وأن القبيلة التي تنضم إلى أى الفريقين تعتبر جزءاً من ذلك الفريقين ، فأى عدوان تتعرض له أى من تلك القبائل يعتبر عدواناً على ذلك الفريقين .

وحسب هذا البند دخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ ودخلت بنو بكر في عهد قريش وصارت كل من القبيلتين في أمن من الأخرى ، وقد كانت بين القبيلتين عداوة وتواترت في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام ووقعت هذه الهدنة وأمن كل فريق من الآخر ، اغتنمها بنو بكر وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة النثار القديم ، فخرج نوفل بن معاوية الديلي في جماعة من بنى بكر في شهر شعبان سنة ٨ هـ ، فأغاروا على خزاعة ليلاً ، وهم على ماء يقال له : "الوتير" فأصابوا منهم رجالاً ، وتناوشوا واقتتلوا وأعانت قريش بنى بكر بالسلاح ، وقاتل معهم رجال من قريش مستغلين ظلمة الليل ؛ حتى حازوا خزاعة إلى الحرم ، فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر : يا نوفل ، إنا قد دخلنا الحرم ، إهلك إهلك ، فقال كلمة عظيمة : لا إله اليوم يا بنى بكر ، أصيبوا ثأركم ، فلعمري إنكم لتسرقون في الحرم ؛ أفلا تصيبون ثأركم فيه ؟ . ولما دخلت خزاعة مكة لجأوا إلى دار بديل بن ورقاء الخزاعي ، وإلى دار مولى لهم يقال له : رافع .

وأسرع عمرو بن سالم الخزاعي فخرج ؛ حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة فوقف عليه ، وهو جالس في المسجد بين ظهراني الناس فقال :

يا رب إني ناشدٌ محمدًا	حلفنا وحلف أبيه الأتلادا ^(١)
قد كنتم ولدًا وكنا والدا ^(٢)	ثمة أسلمنا ولم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصرًا أبدًا	وإدع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا	أبيض مثل البدر يسمو صعدا
إن سيم خسفًا وجهه ترئدا	في فيلق كالبحر يجمرى مُزبدا
إن قريشًا أخلفوك الموعدا	ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وجعلوا لي في كداء رصدا	وزعموا أن لست أدعو أحدا
وهم أذل وأقل عددا	هم يئوتونا بالوتير هُجدا

وَقَتْلُونَا رُكْعًا وَسُجْدًا

(١) الأتلادا: القديم يشير إلى الحلف الذي كان بين خزاعة وبين بني هاشم منذ عهد عبد المطلب .

(٢) يشير إلى أن أم عبد مناف وهي جبي زوجة قصي - كانت من خزاعة .

فقال رسول الله ﷺ : «نصرت يا عمرو بن سالم» ثم عرضت له سحابة من السماء فقال: «إن هذه السحابة لتسهل بنصر بنى كعب»^(١).

ذَهَابُ ابْنِ وَرْقَاءَ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ وَمَعْرِفَةُ أَبِي سُفْيَانَ بِأَمْرِهِ:

ثم خرج بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة ؛ حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة ، فأخبروه بما أصيب منهم ، وبمظاهرة قريش بنى بكر عليهم ، ثم انصرفوا راجعين إلى مكة فقال رسول الله ﷺ : «كانكم بأبي سفيان قد جاءكم ؛ ليشد العقد ويزيد في المدة» .

ومضى بديل بن ورقاء وأصحابه ؛ حتى لقوا أبا سفيان بن حرب بعُسفان قد بعثته قريش إلى رسول الله ﷺ ؛ ليشد العقد ويزيد في المدة ، وقد وهبوا الذي صنعوا ؛ فلما لقي أبو سفيان بديل بن ورقاء قال : من أين أقبلت يا بديل ؟ وظن أنه قد أتى رسول الله ﷺ قال : تسيرت في خزاعة في هذا الساحل ، وفي بطن هذا الوادي قال : أو ما جئت محمدا ؟ قال : لا ، فلما راح بديل إلى مكة قال أبو سفيان : لئن جاء بديل المدينة لقد علف بها النوى ، فأتى مبرك راحلته فأخذ من بعرها ففته ، فرأى فيه النوى فقال : أحلف بالله لقد جاء بديل محمداً^(٢) .

قُدُومُ أَبِي سُفْيَانَ الْمَدِينَةَ لِلصُّلْحِ وَإِحْقَاقِهِ:

وقدم أبو سفيان المدينة ، فدخل على ابنته أم حبيبة ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه ، فقال : يا بنية ما أدرى أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس ، قال : والله لقد أصابك بعدى شر .

ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فكلمه فلم يرد عليه شيئاً ، ثم ذهب إلى أبي بكر فكلمه أن يكلم له رسول الله ﷺ ، فقال : «ما أنا بفاعل» ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه فقال : أنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ ؟ فوالله لو لم أجد إلا الدّر لجاهدتكم به ، ثم خرج فدخل على علي بن أبي طالب وعنده فاطمة ، وحسن ، غلام يدب بين يديها ، فقال : يا علي ، إنك أمس القوم بي رحماً ، وإنى قد جئت في حاجة ، فلا أرجع كما

(١) الرحيق المختوم ٣٤٠ - ٣٤١ .

(٢) ابن هشام (٢ / ١٣٠ - ١٣١) .

جئتُ خائبًا، فاشفع لى إلى رسول الله ﷺ فقال : ويحك يا أبا سفيان! والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه فالتفت إلى فاطمة فقال : يا ابنة محمد، هل لك أن تأمر بُنيك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر، قالت : والله ما بلغ منى ذاك أن يجير بين الناس وما يجير أحد على رسول الله ﷺ، قال : يا أبا الحسن . . . إني أرى الأمور قد اشتدت على فانصحنى، قال : والله ما أعلم لك شيئًا يغنى عنك شيئًا، ولكنك سيد بنى كنانة، فقم فأجر بين الناس، ثم ألحق بأرضك قال : أو ترى ذلك مغنيا عنى شيئًا، قال : لا والله ما أظنه ؛ ولكنى لا أجد لك غير ذلك، فقام أبو سفيان فى المسجد فقال : أيها الناس إنى قد أجرت بين الناس ثم ركب بعيره فانطلق .

فلما قدم على قريش قالوا : ما وراءك؟ قال : جئت محمدًا فكلمته فوالله ما ورد على شيئًا ثم جئت ابن أبى قحافة فلم أجد فيه خيرًا، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أدنى العدو ثم جئت عليًا فوجدته ألىن القوم، وقد أشار على بشيء صنعته، فوالله ما أدرى هل يغنى ذلك شيئًا أم لا؟ قالوا : وبم أمرك قال أمرنى أن أجير بين الناس، ففعلت قالوا : فهل أجاز ذلك محمد؟ قال : لا، قالوا : ويلك والله إن زاد الرجل على أن لعب بك، فما يُغنى عنك ما قلت، قال : لا والله ما وجدت غير ذلك^(١) .

وتشير بعض الروايات إلى أن النبى ﷺ أرسل إلى قريش يخبرهم بين دفع دية قتلى خزاعة أو البراءة من خلف بنى بكر، فاختارت الحرب ثم ندمت فبادرت إلى إرسال أبى سفيان كما أسلفنا^(٢) .

الاستعداد لفتح مكة :

أمر رسول الله ﷺ بالجهاز وأمر أهله أن يجهزوه، فدخل أبو بكر على ابنته عائشة - رضى الله عنها- وهى تحرك بعض جهاز رسول الله ﷺ فقال : أى بنية، أأمركم رسول الله ﷺ أن تجهزوه قالت : نعم، فتجهز قال : فأين تريته يريد؟ قالت : لا، والله ما أدرى، ثم إن رسول الله ﷺ أعلم الناس أنه سائر إلى مكة، وأمرهم بالجد والتهيؤ وقال :

(١) ابن هشام (٢ / ١٣١ - ١٣٢)، الرحيق المختوم ٣٤١ - ٣٤٢ .

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ٥٤٣ .

«اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش؛ حتى نبغتها في بلادها» فتجهز الناس^(١).

وزيادة في الإخفاء والتعمية بعث رسول الله ﷺ سرية قوامها ثمانية رجال؛ تحت قيادة أبي قتادة بن ربعي إلى بطن إضم، فيما بين ذى خشب وذى المروة، على ثلاثة بُرْد من المدينة في أول شهر رمضان ٨هـ؛ ليظن الطعان أنه ﷺ يتوجه إلى تلك الناحية ولتذهب بذلك الأخبار، وواصلت هذه السرية سيرها؛ حتى إذا وصلت حينما أمرت بلغها أن رسول الله ﷺ خرج إلى مكة فسارت إليه حتى لحقته.

وكتب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش كتاباً؛ يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم ثم أعطاه امرأة، وجعل لها جُعلاً على أن تبلغه قريشاً، فجعلته في قرون رأسها ثم خرجت به وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب^(٢).

عن عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَا وَالزُبَيْرُ وَالْمِقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ قَالَ: «الْطَّلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ فَإِنَّ بِهَا ظِعِينَ وَمَعَهَا كِتَابٌ فَخُذُوهُ مِنْهَا فَالْطَّلِقُوا تَعَادَى بَنِي خَيْلَنَا حَتَّى التَّهْنِئَا إِلَى الرَّوْضَةِ فَإِذَا نَحْنُ بِالظَّعِينِ فَقُلْنَا أَخْرِجِي الْكِتَابَ فَقَالَتْ مَا مَعِيَ مِنْ كِتَابٍ فَقُلْنَا لَتُخْرِجِي الْكِتَابَ أَوْ لَتُلْقِيَنَّ النَّيَابَ فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَإِذَا فِيهِ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى أَنَاسٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَا حَاطِبُ مَا هَذَا قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ إِنِّي كُنْتُ أَمْرًا مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَلْفُسِهَا وَكَانَ مِنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ التَّسَبُّبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي وَمَا فَعَلْتُ كُفْرًا وَلَا ارْتِدَادًا وَلَا رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَقَدْ صَدَقَكُمْ قَالَ عُمَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي أَضْرِبَ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ قَالَ: إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَذْرًا وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَطْلَعَ عَلَى أَهْلِ بَذَرٍ فَقَالَ ااعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ» فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَنْخِذُوا عِدْوِي وَعِدْوَكُمْ أُولَئِكَ تَلْفُتُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهْدًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَمْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾﴾ [المتحنة: ١]^(٣).

(١) ابن هشام ٢ / ١٣٢.

(٢) الرحيق المختوم ٣٤٢ - ٣٤٣.

(٣) سيرة الرسول أبو عمار ٥٤٤ - ٥٤٥.

تَحْرُكُ الْجَيْشِ الْإِسْلَامِيِّ نَحْوَ مَكَّةَ :

غادر رسول الله ﷺ المدينة قاصداً مكة فى العاشر من رمضان سنة ٨ هـ ، ومعه عشرة آلاف من المسلمين ، وقد استخلف على المدينة أبا رهم ، كلثوم بن حصين بن عتبة ابن خلف الغفارى ، ولما كان بالبحفة لقيه عمه العباس بن عبد المطلب مهاجراً بعياله كما لقيه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أمية بن المغيرة بتية العقاب ، فيما بين مكة والمدينة ، فالتمسا الدخول عليه ، فكلمته أم سلمة فقالت : يا رسول الله ﷺ ابن عمك وابن عمتك وصهرك فقال : « لا حاجة لى فيهما ، أما ابن عمى ، فهتك عرضى ، وأما ابن عمى وصهرى فهو الذى قال لى بمكة ما قال » .

فلما خرج الخبر إليهما بذلك ، ومع أبى سفيان بن الحارث ابن له فقال : والله لياذن رسول الله ﷺ أو لأخذن بيد ابنى هذا ، ثم لنذهب فى الأرض حتى نموت عطشاً أو جوعاً ، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رقى لهما فدخلا عليه فأنشده أبو سفيان قوله فى إسلامه واعتذاره مما كان مضى فيه فقال ^(١) :

لعمرك إني حين أحمل راية	لتقلب خيل اللات خيل محمد
لكا لمدح الحيران أظلم ليلة	فهذا أوانى حين أهدى فأهدى
هدائى هاد غير نفسى ودلى	على الله من طردت كل مطرد

فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال : أنت طردتني كل مطرد ^(٢) .

الْجَيْشُ الْإِسْلَامِيُّ يَنْزِلُ بِمَرِّ الظُّهْرَانِ :

وواصل رسول الله ﷺ سيره وهو صائم والناس صيام ؛ حتى بلغ الكُدَيْد وهو ماء بين عُسْفَانَ وَقْدِيدَ فَأَفْطَرَ وَأَفْطَرَ النَّاسَ مَعَهُ ، ثم واصل سيره حتى نزل بمر الظهران - وادى فاطمة - نزله عشاء ، فأمر الجيش فأوقدوا النيران فأوقدت عشرة آلاف نار ، وجعل رسول الله ﷺ على الحرس عمر بن الخطاب رضى الله عنه ^(٣) .

إِسْلَامُ أَبِي سُفْيَانَ عَلَى يَدِ الْعَبَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

لما نزل رسول الله ﷺ بمر الظهران ، قال العباس : واصباح قريش ، والله لئن دخل

(١) السيرة النبوية للصلاحي (٢ / ٤٥٣) بتصرف .

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ٥٤٦ .

(٣) الرحيق المختوم ص ٣٤٤ .

رسول الله ﷺ مكة عنوة قبل أن يستأمنوه إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر ، قال : فجلست على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء فخرجت عليها حتى جئت الأراك ، فقلت : لعلي ألقى بعض الخطابة أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتي مكة فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ ؛ ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة .

قال : فوالله إنني لأسير عليها وألتمس ما خرجت له إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان وأبو سفيان يقول : ما رأيت كالיום قط نيراناً ولا عسكرياً ، قال يقول بديل : هذه والله نيران خزاعة حمشتها الحرب ^(١) ، قال : يقول أبو سفيان : خزاعة ، والله أذل وألأم من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها ، قال : فعرفت صوته ، فقلت : يا أبا حنظلة فعرف صوتي فقال : أبو الفضل ، فقلت : نعم ، قال مالك : فذاك أبي وأمي فقلت : ويحك يا أبا سفيان هذا رسول الله ﷺ في الناس واصباح قريش والله قال : فما الحيلة فذاك أبي وأمي ؟ قال : قلت : « والله لن ظفر بك ليضربن عنقك فاركب معي هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله ﷺ أستأمنه لك » ، قال : فركب خلفي ورجع صاحبه فحركت به كلما مررت بنار من نيران المسلمين ، قالوا : من هذا فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ قالوا : عم رسول الله ﷺ على بغلته حتى مررت بنار عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال : من هذا وقام إلي فلما رأى أبا سفيان على عجز الناقة قال : أبو سفيان عدو الله الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد ، ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ وركضت البغلة فسبقته بما تسبق الدابة البطيء الرجل البطيء ؛ فاقتحمت عن البغلة فدخلت على رسول الله ﷺ ودخل عمر فقال : يا رسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد فدعني فلاضرب عنقه ، قال : قلت : يا رسول الله إنني قد أجرته ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه ، فقلت : لا والله لا يناجيه الليلة رجل دوني فلما أكثر عمر في شأنه قلت : مهلاً يا عمر أما والله لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت هذا ؛ ولكنك عرفت أنه رجل من رجال بني عبد مناف ، قال : مهلاً يا عباس فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم وما بي إلا أنني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلي رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم فقال رسول الله ﷺ : « اذهب به إلى رحلك يا عباس فإذا أصبح

(١) حمشتها الحرب : أحرقتها .

فانتني به» .

فذهبت به إلى رحلي فبات عندي فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله ﷺ فلما رآه رسول الله ﷺ : «ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله» ؟ قال : بأبي أنت وأمي ما أكرمك وأحلمك وأوصلك ! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد قال : ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟ قال بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك هذه ! والله كان في نفسي منها شيء حتى الآن قال العباس : ويحك يا أبا سفيان أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن يضرب عنقك قال : فشهد بشهادة الحق وأسلم .

قلت : يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر فاجعل له شيئاً ، قال : نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ، فلما ذهب لينصرف قال رسول الله ﷺ : «يا عباس احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل^(١)؛ حتى تمر به جنود الله فيراها» ، قال : فخرجت به ؛ حتى حبسته حيث أمرني رسول الله ﷺ أن أحبسه .

قال : ومرت به القبائل على راياتها كلما مرت قبيلة قال : من هؤلاء فأقول : سليم ، فيقول : ما لي وسليم ، قال : ثم تمر القبيلة ، قال : من هؤلاء؟ فأقول : مزينة ، فيقول : مالي ولمزينة ، حتى نفذت القبائل لا تمر قبيلة إلا قال : من هؤلاء؟ فأقول : بنو فلان ، فيقول : ما لي ولبنى فلان ؛ حتى مر رسول الله ﷺ في كتيبه الخضراء^(٢) فيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد قال : سبحان الله من هؤلاء يا عباس ، قلت : هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك بن أخيك الغداة عظيماً ، قلت : يا أبا سفيان إنها النبوة ، قال : فنعم إذن قلت النجاء إلى قومك .

فخرج حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن فقامت إليه امرأته هند بنت عتبة

(١) خطم الجبل : أنف الجبل .

(٢) كتيبه الخضراء : لكثرة الحديد وظهوره فيها .

فأخذت بشاربه فقالت : اقتلوا الحميت ^(١) الدسم ^(٢) الأحس ^(٣) قبح من طليعة ^(٤) قوم قال : ويحكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم ؛ فإنه قد جاء ما لا قبل لكم به من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، قالوا : ويلك وما تغني دارك ، قال : ومن أغلق بابيه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد ^(٥) .

هَذَا يَوْمٌ يُعَظَّمُ اللَّهُ فِيهِ الْكَعْبَةُ :

وكانت راية الأنصار مع سعد بن عباد ، فلما مر بأبي سفيان قال له : اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرم ، اليوم أذل الله قريشاً ، فلما حاذى رسول الله ﷺ أبا سفيان قال : يا رسول الله ﷺ ألم تسمع ما قال سعد؟ قال : «وما قال» ؟ فقال : قال كذا وكذا ، فقال عثمان وعبد الرحمن بن عوف : يا رسول الله ما نأمن أن يكون له في قريش صولة فقال رسول الله ﷺ : «بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة اليوم يوم أعز الله فيه قريشاً» .

ثم أرسل إلى سعد فنزع منه اللواء ودفعه إلى ابنه قيس ، ورأى أن اللواء لم يخرج عن سعد وقيل : بل دفعه إلى الزبير ^(٦) .

الْجَيْشُ الْإِسْلَامِيُّ بِذِي طُوًى :

أما رسول الله ﷺ فمضى حتى انتهى إلى ذي طوى ، وكان يضع رأسه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ؛ حتى أن شعر لحيته ليكاد يمس واسطة الرحل ، وهناك وزع جيشه ، وكان خالد بن الوليد على المجنبة اليمنى ، وفيها أسلم وسليم وغفار ومزينة وجهيئة وقبائل من قبائل العرب ، فأمره أن يدخل مكة من أسفلها وقال : إن عرض لكم أحد من قريش فاحصدوهم حصداً ؛ حتى توافوني على الصفا .

وكان الزبير بن العوام على المجنبة اليسرى وكان معه راية رسول الله ﷺ فأمره أن يدخل مكة من أعلاها من كداء ، وأن يغرز رايته بالحجون ولا يبرح حتى يأتيه .

(١) الحميت: رق السمن وعاء خاص للسمن .

(٢) الدسم: الكثير الردك .

(٣) الأحس: الشديد وهنا بمعنى الشديد اللحم .

(٤) الطليعة: الذي يحرس القوم .

(٥) ابن هشام (٢ / ١٣٦ - ١٣٩) سيرة الرسول أبو عمار (٥٤٦ / ٥٤٩) .

(٦) الرحيق المختوم ص ٣٤٦ .

وكان أبو عبيدة على الرحالة والحُسْر - وهم الذين لاسلاح معهم - فأمره أن يأخذ بطن الوادي ؛ حتى ينصب لمكة بين يدي رسول الله ﷺ .
الْجَيْشُ الْإِسْلَامِيُّ يَدْخُلُ مَكَّةَ :

وسار رسول الله ﷺ فدخل مكة من أعلاها ، وضربت له هنالك قبة ، وتحركت كل كتيبة من الجيش الإسلامي على الطريق التي كلفت الدخول منها ؛ فأما خالد وأصحابه فلم يلقهم أحد من المشركين إلا أناموه ، وقتل من أصحابه من المسلمين كرز بن جابر الفهري وخنيس بن خالد بن ربيعة ، كانا قد شذا عن الجيش فسلكا طريقاً غير طريقه فقتلا جميعاً ، أما سفهاء قريش فقد تجمعوا مع عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو بالخدمة ليقاتلوا المسلمين ، وكان حماس بن قيس بن خالد أخو بني بكر يُعد سلاحاً قبل دخول رسول الله ﷺ فقلت له امرأته : لماذا تعد ما أرى ؟ قال : لمحمد وأصحابه ، قالت : والله ما يقوم لمحمد وأصحابه شيء ، قال : إني والله لأرجو أن أخدمك بعضهم ثم قال :

إِنْ يُقْبَلُوا الْيَوْمَ فَمَا لِي عَلَيْهِ هَذَا سِلَاحٍ كَامِلٌ وَأَلْسَةٌ^(١)
 وَذُو غَرَارَيْنِ سَرِيعِ السَّلَّةِ^(٢)

ثم شهد الخدمة مع صفوان وعكرمة وسهيل بن عمرو ، فلما لقيهم المسلمون ناوشوهم شيئاً من قتال فأصابوا من المشركين نحو اثني عشر رجلاً ، ثم انهزم المشركون وانهزم حماس بن قيس صاحب السلاح ؛ حتى دخل بيته فقال لامرأته : أغلقت علي بابي ، فقالت : وأين ما كنت تقول ؟ قال :

إِنَّكَ لَوْ شِهِدْتَ يَوْمَ الْخُدْمَةِ إِذْ فَرَّ صَفْوَانٌ وَفَسَرَ عَكْرَمَةَ
 وَاسْتَقْبَلْتَنَا بِالسُّيُوفِ الْمُسْلِمَةِ يَقْطَعْنَ كُلَّ سَاعِدٍ وَهَجَمَةَ
 ضَرْبًا فَلَا يَسْمَعُ إِلَّا غَمْغَمَةَ هُمْ هُمٌ حَوْلَنَا وَهَمَمَةُ^(٣)
 لَمْ تَنْطَقِي فِي اللَّوْمِ أَدْنَى كَلِمَةٍ^(٤)

(١) الرحيق المختوم ص ٣٤٧ .

(٢) الألة : الحربة لها أسنان طويلة .

(٣) ذو غرارين : سيف ذو حدين .

(٤) الغمغمة : أصوات الأبطال والهمهمة : صوت في الصدر ، والنهيت : صياح الأسد .

(٥) الرحيق المختوم ص ٣٤٧ ، سيرة الرسول أبو عمار ٥٥٠ - ٥٥١ .

الرَّسُولُ ﷺ يَدْخُلُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَيُطَهِّرُهُ مِنَ الْأَصْنَامِ:

ثم نهض رسول الله ﷺ والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله ؛ حتى دخل المسجد فأقبل إلى الحجر الأسود فاستلمه ثم طاف بالبيت ، وفي يده قوس وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً فجعل يطعنهما بالقوس ويقول : ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الاسراء: ٨١] ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُدْعِي الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ [سبا: ٤٩] والأصنام تتساقط على وجوهها .

وكان طوافه على راحلته ولم يكن محرماً يومئذ ، فاقصر على الطواف فلما أكمله دعا عثمان بن طلحة ، فأخذ منه مفتاح الكعبة فأمر بها ففتحت فدخلها فرأى فيها الصور ورأى فيها صورة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يستقسمان بالأزلام ، فقال : « قاتلهم الله ؛ والله ما استقسما بمأقط » ورأى في الكعبة حمامة من عيدان ، فكرها بيده وأمر بالصور فمحيث ^(١) .

صَلَاةُ الرَّسُولِ ﷺ دَاخِلَ الْكَعْبَةِ وَخَطَابُهُ أَمَامَ قَرِيشَ:

ثم أغلق عليه الباب ومعه أسامة وبلال وعثمان بن طلحة ، فاستقبل الجدار الذي يقابل الباب حتى إذا كان بينه وبينه ثلاثة أذرع وقف ، وجعل عمودين من يساره ، وعموداً عن يمينه ، وثلاثة أعمدة وراءه ، وكان البيت - يومئذ - على ستة أعمدة ، ثم صلى هناك ثم دارت في البيت وكبر في نواحيه ، ووحد الله ثم فتح الباب ، وقريش قد ملأت المسجد صفوفاً ينتظرون ماذا يصنع ؟ فأخذ بعضادتي الباب وهم تحته فقال : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ ، صَدَقَ وَعْدُهُ ، وَنَصَرَ عَبْدُهُ وَهَزَمَ الْأَخْزَابَ وَحْدَهُ » إِلَى مَا هُنَا حَفِظْتُهُ عَنْ مُسَدِّدٍ ثُمَّ اتَّفَقَا : « أَلَا إِنَّ كُلَّ مَائِرَةٍ كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تُذَكَّرُ وَتُدْعَى مِنْ دَمٍ أَوْ مَالٍ تَحْتَ قَدَمِي إِلَّا مَا كَانَ مِنْ سِقَايَةِ الْحَاجِّ وَسِدَائَةِ الْبَيْتِ ثُمَّ قَالَ : أَلَا إِنَّ دِيَةَ الْخَطَايَا شِبْهُ الْعَمْدِ مَا كَانَ بِالسُّوْطِ وَالْعَصَا مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ مِنْهَا أَرْبَعُونَ فِي بَطْنِ أَوْلَادِهَا يَا مَعْشَرَ قَرِيشَ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ غُبِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَعَاظَمَهَا بِآبَائِهَا فَالْتَأَسُ رَجُلَانِ بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيْنَ عَلَى اللَّهِ وَالتَّاسُ بَنُو آدَمَ وَخَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مِنْ تَرَابٍ

قَالَ اللَّهُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (١٣) [الحجرات: ١٣] يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيرا أخ كريم وابن أخ كريم، قال: «لاني أقول لكم ما قال يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم؛ اذهبوا فانتم الطلقاء» (١).

الْيَوْمُ يَوْمُ بَرِّ وَوَفَاءٍ:

ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد فقام إليه على - رضى الله عنه - ومفتاح الكعبة في يده فقال: يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «أين عثمان بن طلحة؟» فدعى له فقال له: «هاك مفتاحك يا عثمان؛ اليوم يوم بر وفاء».

وذكر ابن سعد في الطبقات عن عثمان بن طلحة قال: كنا نفتح الكعبة في الجاهلية يوم الاثنين والخميس فأقبل رسول الله ﷺ يوماً يريد أن يدخل الكعبة مع الناس فأغلظت له، ونلت منه فحلم عني ثم قال: «يا عثمان لعلك ستري هذا المفتاح يوماً بيدي أضعه حيث شئت فقلت: هلك قريش يومئذ وذلت» فقال: بل عمرت وعزت يومئذ، ودخل الكعبة فوقعت كلمته منى موقعاً، ظننت أن الأمر سيصير إلى ما قال، فلما كان يوم الفتح قال: «يا عثمان اتنى المفتاح، فأتيته به فأخذه منى، ثم دفعه إلي» وقال: خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم يا عثمان، إن الله استأمنكم على بيته، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف، قال: فلما وليت ناداني فرجعت إليه فقال: ألم يكن الذي قلت لك؟ قال: فذكرت قوله لي بمكة قبل الهجرة: لعلك ستري هذا المفتاح بيدي أضعه حيث شئت، فقلت: بلى أشهد أنك رسول الله ﷺ (٢).

بِلَالٌ يُؤْذَنُ فَوْقَ الْكَعْبَةِ:

وأمر رسول الله ﷺ بلالاً أن يؤذن فوق الكعبة، وأبو سفيان بن حرب وعتبان بن أسيد والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة، فقال عتاب بن أسيد: لقد أكرم الله أسيداً

(١) ابن هشام (٢ / ١٤٦)، الرحيق المختوم ص ٣٤٨، السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٤٦٥).

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ٥٥٥ - ٥٥٦.

ألا يكون سمع هذا ، فيسمع منه ما يغيظه فقال الحارث بن هشام : أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته ، فقال أبو سفيان : لا أقول شيئاً لو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحصى ، فخرج عليهم النبي ﷺ فقال : «علمت الذى قلتم ثم ذكر ذلك لهم» فقال الحارث وعتاب : نشهد أنك رسول الله ﷺ ، والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا ، فنقول أخبرك^(١) .

قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتَ يَا أُمَّ هَانِي :

ثم دخل رسول الله ﷺ دار أم هانى بنت أبى طالب فاغتسل وصلى ثمانى ركعات فى بيتها ، وكان ضحى ، فظنها من ظنها صلاة الضحى ، وإنما هذه صلاة الفتح^(٢) .

وأجارت أم هانى بنت أبى طالب - رضى الله عنها- يوم الفتح رجلاً من المشركين وكان علي يريد قتله ، قالت : فجئت النبي ﷺ عَامَ الْفَتْحِ فَوَجَدْتُهُ يَغْتَسِلُ وَفَاطِمَةُ ابْنَتُهُ تَسْتُرُهُ قَالَتْ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ ﷺ : «مَنْ هَذِهِ؟» فَقُلْتُ: أَنَا أُمُّ هَانِي بِنْتُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ : «مَرْحَبًا بِأُمِّ هَانِي» فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ غُسْلِهِ قَامَ فَصَلَّى ثَمَانِي رَكَعَاتٍ مُلْتَحِفًا فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ فَلَمَّا انْصَرَفَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ زَعَمَ ابْنُ أُمِّي أَنَّهُ قَاتِلُ رَجُلٍ قَدْ أَجَرْتُهُ فَلَانَ ابْنُ هُبَيْرَةَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتَ يَا أُمَّ هَانِي»^(٣) .

إِهْدَارُ النَّبِيِّ ﷺ لِبَعْضِ الدَّمَاءِ :

وأهدر رسول الله ﷺ يومئذ دماء تسعة نفر من أكابر المجرمين ، فعَنْ مُصَنَّبِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ لَمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ آمَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ إِلَّا أَرْبَعَةً نَفَرٍ وَأَمْرَاتَيْنِ وَقَالَ : «اقْتُلُوهُمْ وَإِنْ وَجَدْتُمُوهُمْ مُتَعَلِّقِينَ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ خَطْلٍ وَمَقِيسُ بْنُ صَبَابَةَ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي السَّرْحِ» فَأَمَّا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ خَطْلٍ فَأُذِرِكَ وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ فَاسْتَبَقَ إِلَيْهِ سَعِيدُ بْنُ حُرَيْثٍ وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ فَسَبَقَ سَعِيدٌ عَمَّارًا وَكَانَ أَشَبَّ الرَّجُلَيْنِ فَقَتَلَهُ وَأَمَّا مَقِيسُ بْنُ

(١) ابن هشام (٢ / ١٤٧ - ١٤٨) .

(٢) الرحيق المختوم ص ٣٤٩ .

(٣) فقه السيرة للبوطي ص ٢٨١ .

صَبَابَةً فَأَذْرَكَهُ النَّاسُ فِي السُّوقِ فَقَتَلُوهُ وَأَمَّا عِكْرَمَةُ فَرَكِبَ الْبَحْرَ فَأَصَابَتْهُمْ عَاصِيفٌ فَقَالَ أَصْحَابُ السَّفِينَةِ: أَخْلِصُوا فَإِنَّ إِلَهَكُمْ لَا تُغْنِي عَنْكُمْ شَيْئًا هَاهُنَا فَقَالَ عِكْرَمَةُ وَاللَّهِ لَئِنْ لَمْ يُنَجِّنِي مِنَ الْبَحْرِ إِلَّا الْإِخْلَاصُ لَا يُنَجِّنِي فِي الْبَرِّ غَيْرُهُ اللَّهُمَّ إِنَّ لَكَ عَلَيَّ عَهْدًا إِنْ أَنْتَ عَافَيْتَنِي مِمَّا أَنَا فِيهِ أَنْ آتِي مُحَمَّدًا ﷺ حَتَّى أَضَعَ يَدِي فِي يَدِهِ فَلَا جِدَّةَ عَفْوًا كَرِيمًا فَجَاءَ فَأَسْلَمَ وَأَمَّا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدٍ بْنُ أَبِي السَّرْحِ فَإِلَيْهِ اخْتَبَأَ عِنْدَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ فَلَمَّا دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ إِلَى الْبَيْعَةِ جَاءَ بِهِ حَتَّى أَوْفَقَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ بَايَعْتُ عَبْدَ اللَّهِ قَالَ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَنَظَرَ إِلَيْهِ ثَلَاثًا كُلَّ ذَلِكَ يَأْبَى فَبَايَعَهُ بَعْدَ ثَلَاثٍ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: «أَمَّا كُنَّا فَيَكُمُ رَجُلٌ رَشِيدٌ يَقُومُ إِلَى هَذَا حَيْثُ رَأَيْتُ كَفَفْتُ يَدِي عَنْ بَيْعِهِ فَيَقْتُلُهُ» فَقَالُوا وَمَا يُذَرِّبُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا فِي نَفْسِكَ هَلَا أَوْمَأَتْ إِلَيْنَا بِعَيْنِكَ قَالَ: «إِنَّهُ لَا يَتَّبِعِي لَنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ خَائِنَةٌ أَعَيْنَ» .

وأما الحارث فكان شديد الأذى لرسول الله ﷺ بمكة فقتله علي .

وأما هُبَارُ بْنُ الْأَسْوَدِ فَهُوَ الَّذِي كَانَ قَدْ عَرَضَ لَزَيْنَبِ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ هَاجَرَتْ فَنَخَسَ بِهَا حَتَّى سَقَطَتْ عَلَى صَخْرَةٍ ، وَأَسْقَطَتْ جَنِينَهَا ، فَفَرَّ هُبَارُ يَوْمَ مَكَّةَ ثُمَّ أَسْلَمَ وَحَسَنَ إِسْلَامَهُ ، وَأَمَّا الْقَيْتَانُ فَقَتَلَتْ إِحْدَاهُمَا ، وَاسْتَوْمَنَ لِلْأُخْرَى فَأَسْلَمَتْ كَمَا اسْتَوْمَنَ لِسَارَةَ وَأَسْلَمَتْ .

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ : وَذَكَرَ أَبُو مَعْشَرٍ فَيَمُنْ أَهْدَرَ دَمَهُ الْحَارِثُ بْنُ طَلَّاطِلِ الْخَزَاعِي ، قَتَلَهُ عَلِيٌّ ، وَذَكَرَ الْحَاكِمُ أَيْضًا مِمَّنْ أَهْدَرَ دَمَهُ كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ ، وَقَصَتُهُ مَشْهُورَةٌ ، وَقَدْ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ وَأَسْلَمَ وَمَدَحَ ، وَوَحْشِيُّ بْنُ حَرْبٍ ، وَهَنْدُ بِنْتُ عَتَبَةَ امْرَأَةُ أَبِي سَفْيَانَ ، وَقَدْ أَسْلَمَتْ ، وَأَرْنَبُ مَوْلَاةُ ابْنِ خُطَلٍ أَيْضًا قَتَلَتْ ، وَأَمَّ سَعْدٌ قَتَلَتْ فِيمَا ذَكَرَ ابْنُ إِسْحَاقَ : فَكَمَلَتْ الْعِدَّةَ ثَمَانِيَةَ رِجَالٍ وَسِتْ نِسَاءً ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ أَرْنَبُ وَأَمَّ سَعْدُ الْقَيْتَانِ ، اخْتَلَفَ فِي اسْمِهِمَا أَوْ بِاعْتِبَارِ الْكُنْيَةِ وَاللَّقَبِ ^(١) .

إِسْلَامُ بَعْضِ رِجَالِ قُرَيْشٍ

(١) الرحيق المختوم ٣٤٩ - ٣٥٠ .

١- إِسْلَامُ سَهِيلِ بْنِ عَمْرٍو:

لما دخل النبي ﷺ مكة أغلق سهيل بن عمرو عليه بابه ، وأرسل إلى ابنه عبد الله أن يطلب له الجوار من النبي ﷺ فذهب سهيل إلى النبي ﷺ طالباً الجوار لأبيه ، فأمنه رسول الله ﷺ فقال سهيل: كان والله برأ صغيراً وكبيراً ، وخرج سهيل مع النبي ﷺ إلى حنين وهو على شركة حتى أسلم بالجعرانة^(١) .

٢- إِسْلَامُ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ:

لم يكن صفوان ابن أمية من أهدر دمه ، لكنه بصفته زعيماً كبيراً من زعماء قريش خاف على نفسه ، وفر فاستأمن له عمير بن وهب الجمحي رسول الله ﷺ فأمنه ، وأعطاه عمامته التي دخل بها مكة فلحقه عمير وهو يريد أن يركب البحر من جده إلى اليمن ، فردّه فقال لرسول الله ﷺ اجعلني بالخيار شهرين ، فقال : «أنت بالخيار أربعة أشهر»^(٢) .

وخرج رسول الله ﷺ هوازن ، وخرج معه صفوان وهو كافر ، وأرسل إليه يستعيره سلاحه فأعاروه سلاحه مائة درع بأداتها ، فقال : طوعاً أو كرهاً ، قال رسول الله ﷺ «عارية مؤداة» ، فأعاره ، فأمره رسول الله ﷺ بحملها إلى حنين فشهد حنيناً والطائف ، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى الجعرانة ، فبينما رسول الله ﷺ يسير في الغنائم ينظر إليها ، ومعه صفوان جعل صفوان ينظر إلى شعب ملئ نعماً وشاء ورعاء ، فأدام النظر إليه ورسول الله ﷺ يرمقه فقال : «أبا وهب يعجبك هذا الشعب» ، قال : نعم ، قال : «هو لك وما فيه» ، فقال صفوان عند ذلك : ما طابت بمثل هذا إلا نفس نبي ، أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله ﷺ^(٣) .

٢- إِسْلَامُ أَبِي قُحَافَةَ:

قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق رضى الله عنهما : لما دخل رسول الله ﷺ مكة ودخل المسجد ، أتى أبو بكر بأبيه يقوده فلما رآه رسول الله ﷺ قال :

(١) السيرة النبوية للصلاحي ٢ / ٤٧٥ .

(٢) الرحيق المختوم ص ٣٥٠ .

(٣) السيرة النبوية للصلاحي ٢ / ٤٧٦ - ٤٧٧ .

«هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتية فيه؟» قال أبو بكر : يا رسول الله ﷺ هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشى إليه أنت ، قالت : فأجلسه بين يديه ثم مسح على صدره ، ثم قال له : «أسلم» ، فأسلم قالت : فدخل به أبو بكر وكان رأسه ثغامة^(١) ، فقال رسول الله ﷺ : غيروا هذا من شعره ، ويروى أن رسول الله ﷺ هنا أبا بكر بإسلام أبيه^(٢) .

٤- إِسْلَامُ فَضَالَةَ بْنِ عُمَيْرٍ :

أراد فضالة بن عمير قتل النبي ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح ، فلما دنا منه قال رسول الله ﷺ : «أفضالة» ؟ قال : نعم يا رسول الله ﷺ ، قال : «ماذا كنت تحدث به نفسك» ، قال : لا شيء ، كنت أذكر الله فضحك النبي ﷺ ثم قال : «استغفر الله ثم وضع يده على صدره ، فسكن قلبه» فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خلق الله شيء أحب إليّ منه^(٣) .

خُطْبَةُ الرَّسُولِ ﷺ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي مِنَ الْفَتْحِ :

ولما كان الغد من يوم الفتح قام رسول الله ﷺ يَوْمَ الْفَتْحِ فَتَحَ مَكَّةَ وقال^(٤) : «لَا هَجْرَةَ وَلَكِنْ جِهَادَ وَنِيَّةَ، وَإِذَا اسْتَنْفَرْتُمْ فَأَنْفِرُوا، إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَمُ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا يُعْصَدُ شَوْكُهُ وَلَا يُنْفَرُ صَيْدُهُ وَلَا يُلْقَطُ إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا وَلَا يُخْتَلَى خِلَاهَا فَقَالَ الْعَبَّاسُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا الْإِذْحَرَ فَإِنَّهُ لَقَيْنَهُمْ وَلِيَّوْتَهُمْ فَقَالَ : إِلَّا الْإِذْحَرَ»^(٥) .

وكانت خزاعة قتلت يومئذ رجلا من بني ليث بقتيل لهم في الجاهلية فقال رسول الله ﷺ بهذا الصدد : «يَا مَعْشَرَ خُزَاعَةَ ارْأَعُوا أَيْدِيَكُمْ عَنِ الْقَتْلِ لَقَدْ كُتِرَ أَنْ يَقَعَ لِسِنِّ قَتْلُمْ قَتِيلًا لَأَدِيَسُنَّهُ فَمَنْ قُتِلَ بَعْدَ مَقَامِي هَذَا فَأَهْلُهُ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ إِنْ شَاءُوا فَلَمْ

(١) ثغامة: نبت أبيض الزهر والتمر يشبه الشيب .

(٢) السيرة النبوية للصلاحي ٢ / ٤٧٩ .

(٣) ابن هشام ٢ / ١٥١ .

(٤) رواه مسلم ١٣٥٣ .

(٥) الإذخر: نبات عشي من فصيلة النجيليات له رائحة ليمونية عطرة .

فَقَاتِلِهِ وَإِنْ شَاءُوا فَعَقَلْهُ» وفي رواية : فقام رجل من أهل اليمن يقال له : أبو شاة فقال : اكتب لي يا رسول الله ، فقال ﷺ : «اكتبوا لأبي شاة»^(١) .
المَحْيَا مَحْيَاكُمْ وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ :

قال أبو هريرة : . . أتى رسول الله ﷺ الصفا فعلاه ؛ حيث ينظر إلى البيت فرفعه يديه فجعل يذكر الله بما شاء أن يذكره ويدعوه ، قال : والأنصار تحته ، فَقَالَتْ الْأَنْصَارُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ أُمَّا الرَّجُلُ فَأَذْرَكْنَاهُ رَغْبَةً فِي قَرَّتِيهِ وَرَأْفَةً بِعَشِيرَتِهِ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : وَجَاءَ الْوَحْيُ وَكَانَ إِذَا جَاءَ الْوَحْيُ لَا يَخْفَى عَلَيْنَا فِإِذَا جَاءَ فَلَيْسَ أَحَدٌ يَرْفَعُ طَرْفَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى يَنْقَضِيَ الْوَحْيُ فَلَمَّا انْقَضَى الْوَحْيُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ» قَالُوا : لَيْتَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ : «قُلْتُمْ أُمَّا الرَّجُلُ فَأَذْرَكْنَاهُ رَغْبَةً فِي قَرَّتِيهِ» قَالُوا : قَدْ كَانَ ذَلِكَ قَالَ : «كَلَّا إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ هَاجَرْتُ إِلَى اللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَالْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ» فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَبْكُونَ وَيَقُولُونَ : وَاللَّهِ مَا قُلْنَا الَّذِي قُلْنَا إِلَّا الضَّنَّ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُصَدِّقَانَكُمْ وَيَعْدِرَانَكُمْ»^{(٢) (٣)} .

أَخَذَ الْبَيْعَةَ :

وحين فتح الله مكة على رسول الله ﷺ والمسلمين تبين لأهل مكة وعلموا أن لا سبيل إلى الكفاح إلا الإسلام ، فأذعنوا له واجتمعوا للبيعة فجلس رسول الله ﷺ على الصفا يبائع الناس ، وعمر بن الخطاب أسفل منه يأخذ على الناس فبايعوه على السمع والطاعة فيما استطاعوا .

وفى المدارك : روى أن النبي ﷺ لما فرغ من بيعة الرجال أخذ في بيعة النساء وهو على الصفا ، وعمر قاعد أسفل منه ، يبايعهن بأمره ويبلغهن عنه فجاءت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان متنكرة ؛ خوفاً من رسول الله ﷺ أن يعرفها لما صنعت بحمزة ، فقال رسول الله ﷺ : «أبايعكن على ألا تشركن بالله شيئاً» فبايع عمر النساء على ألا يشركن بالله شيئاً .

(١) الرحيق المختوم ٣٥٠ - ٣٥١ .

(٢) أخرجه مسلم ١٧٨٠ .

(٣) سيرة الرسول أبو عمار ص ٥٥٠ .

فقال رسول الله ﷺ : «ولا تسرقن» فقالت هند : إن أبا سفيان رجل شحيح ؛ فإن أنا أصبت من ماله هنات؟ فقال ابو سفيان : وما أصبت فهو لك حلال ، فضحك رسول الله ﷺ وعرفها فقال : «وإنك لهند؟» قالت : فاعف عما سلف يا نبي الله عفا الله عنك ، فقال : «ولا يزنين» فقالت : أو تزني الحرة؟ فقال : «ولا يقتلن أولادهن» فقالت : ربيناهم صغاراً وقتلتموهم كباراً ، فأنتم وهم أعلم - وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قد قتل يوم بدر- فضحك عمر ؛ حتى استلقى فبسم رسول الله ﷺ قال : «ولا يأتين بهتان» ، فقالت : والله إن البهتان لأمر قبيح ، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق ، فقال : «ولا يعصينك في المعروف» فقالت : والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك ، ولما رجعت جعلت تكسر صنمها وتقول : كنا منك في غرور .

وفي الصحيح: قَالَتْ جَاءَتْ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا كَانَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ مِنْ أَهْلِ خِבَاءٍ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ يَذْلُوا مِنْ أَهْلِ خِيبَتِكَ ثُمَّ مَا أَصْبَحَ الْيَوْمَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ أَهْلُ خِيبَاءٍ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ يَعِزُّوا مِنْ أَهْلِ خِيبَتِكَ ، قَالَتْ: وَأَيْضًا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ قَالَتْ^(١): يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ مَسِيكٌ ، فَهَلْ عَلَيَّ حَرَجٌ أَنْ أُطْعِمَ مِنَ الَّذِي لَهُ عِيَالُنَا ، قَالَ: «لَا أَرَاهُ إِلَّا بِالْمَعْرُوفِ»^(٢) .

أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ^(٣): «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟» ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّمَا أَهْلُكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَتَهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَإِنَّمَا اللَّهُ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتُ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»^(٤) .

(١) رواه البخاري ٥٣٥٩ .

(٢) الرحيق المختوم ٣٥١ - ٣٥٢ .

(٣) أخرجه البخاري ٣٤٧٥ .

(٤) سيرة الرسول أبو عمار ص ٥٦٣ .

إِقَامَتُهُ ﷺ بِمَكَّةَ وَعَمَلُهُ فِيهَا :

نزل رسول الله ﷺ بالحجون في المكان الذي تعاقدت فيه قريش على مقاطعة بني هاشم والمسلمين ؛ فعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَنْزِلُ فِي دَارِكَ بِمَكَّةَ ؟ فَقَالَ: «وَهَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مِنْ رِبَاعِ أَوْ دُورٍ» وَكَانَ عَقِيلٌ وَرِثَ أَبَا طَالِبٍ هُوَ وَطَالِبٌ أَخُوهُ وَبَاعَ الدَّوْرَ كُلِّهَا ، وَلَمْ يَرِثْهُ جَعْفَرٌ وَلَا عَلِيٌّ شَيْئًا لِأَنَّهُمَا كَانَا مُسْلِمَيْنِ ، وَأَبُو طَالِبٍ مَاتَ كَافِرًا^(١) .

وأقام الرسول ﷺ بمكة تسعة عشر عامًا يجدد معالم الإسلام ، ويرشد الناس إلى الهدى والتقوى ، وخلال هذه الأيام أمر أبا أسيد الخزاعي فجدد أنصاب الحرم ، وبث سراياه للدعوة إلى الإسلام ولكسر الأوثان التي كانت حول مكة فكسرت كلها ، ونادى مناديه بمكة : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنفاً إلا كسره^(٢) .

(١) السيرة النبوية للصلاحي (٢ / ٤٨٦) .

(٢) الرجيق المختوم ص ٣٥٢ .

الرَّايَا وَالْبُعُوثُ

١- سَرِيَّةُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ إِلَى الْعُزَّى:

بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى العزى لخمس ليال بقين من شهر رمضان ليهدمها ، فخرج إليها في ثلاثين فارساً من أصحابه ؛ حتى انتهوا إليها فهدمها ، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره ، فقال: هل رأيت شيئاً؟ قال: «لا» ، قال: فإنك لم تهدمها فارجع إليها فاهدمها فرجع خالد وهو متغيظ فجرد سيفه فخرجت إليه امرأة عجوز عريانة سوداء ناشرة الرأس ، فجعل السادن يصيح بها ، فضربها خالد فجز لها باثنتين ، ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال: «نعم تلك العزى وقد أيست أن تعبد في بلادكم أبداً، وكانت بنخلة وكانت لقريش وجميع بني كنانة، وكانت أعظم أصنامهم وكان سدنتها بنى شيبان»^(١) .

٢- سَرِيَّةُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ إِلَى سَوَاع:

ثم بعث عمرو بن العاص إلى سَوَاع وهو: صنم لهديل ؛ ليهدمه قال عمرو: فانتهيت إليه وعنده السادن ، فقال: ما تريد؟ قلت: أمرني رسول الله ﷺ أن أهدمه ، فقال: لا تقدر على ذلك ، قلت: لِمَ؟ قال: تُمنع ، قلت: حتى الآن أنت على باطل ، ويحك فهل يسمع أو يبصر؟ قال: فدنوت منه فكسرتة ، وأمرت أصحابي فهدموا بيت خزانته ، فلم نجد فيه شيئاً ثم قلت للسادن: كيف رأيت؟ قال: أسلمت لله^(٢) .

٣- سَرِيَّةُ سَعْدِ بْنِ زَيْدِ الْأَشْهَلِيِّ إِلَى مَنَاة:

ثم بعث سعد بن زيد الأشهلي إلى مَنَاة في عشرين فارساً ، وكانت بالمشلل عند قُدَيْدٍ لِلأَوْسِ وَالْخَزَرَجِ وَغَسَّانٍ وَغَيْرِهِمْ ، فلما انتهى سعد إليها قال له سادنها: ما تريد؟ قال: هدم مَنَاة ، قال: أنت وذاك ، فأقبل إليها سعد وخرجت امرأة عريانة سوداء نائرة الرأس تدعو بالويل وتضرب صدرها فقال لها السادن: مَنَاة دُونُكَ بَعْضُ عُصَاتِكَ ، فضربها سعد فقتلها ، وأقبل إلى الصنم فهدمه وكسره ، ولم يجدوا في خزانته شيئاً^(٣) .

(١) الرحيق المختوم ص ٣٥٢ .

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ٥٦٤ .

(٣) الرحيق المختوم ص ٣٥٢ .

٤- سَرِيَّةُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ إِلَى بَنِي جَذِيمَةَ:

ولما رجع خالد بن الوليد من هدم العزى بعثه رسول الله في شوال ٨هـ إلى بني جذيمة ، فعَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى بَنِي جَذِيمَةَ فَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَلَمْ يُحْسِنُوا أَنْ يَقُولُوا أَسْلَمْنَا فَجَعَلُوا يَقُولُونَ: صَبَّأْنَا صَبَّأْنَا فَجَعَلَ خَالِدٌ يَقْتُلُ مِنْهُمْ وَيَأْسِرُ وَدَفَعَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِثْلَ أُسِيرَةٍ حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمَ أَمَرَ خَالِدٌ أَنْ يَقْتُلَ كُلَّ رَجُلٍ مِثْلَ أُسِيرَةٍ فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَقْتُلُ أُسِيرِي وَلَا يَقْتُلُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِي أُسِيرَهُ حَتَّى قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَذَكَرْنَاهُ فَرَفَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ» مَرَّتَيْنِ .

وكانت بنو سليم هم الذين قتلوا أسراهم دون المهاجرين والأنصار ، وبعث رسول الله ﷺ علياً فَوَدَى لَهُمْ قَتْلَاهُمْ وَمَا ذَهَبَ مِنْهُمْ ، وَكَانَ بَيْنَ خَالِدٍ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ كَلَامٌ وَشَرَفٌ فِي ذَلِكَ فَبَلَغَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «مَهْلًا يَا خَالِدُ، دَعِ عَنْكَ أَصْحَابِي، فَوَاللَّهِ لَوْ كَانَ أَحَدُ ذَهَبًا ثُمَّ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا أَدْرَكَتْ غَدْوَةَ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِي وَلَا رَوْحَتَهُ» (١) .

نَتَائِجُ فَتْحِ مَكَّةَ

كان لفتح مكة نتائج كثيرة منها:

١- دخلت مكة تحت نفوذ المسلمين وزالت دولة الكفر منها وجانت الفرصة للقبضاء على جيوب الشرك في حنين والطائف ومن ثم إلى العالم أجمع .

٢- أصبح المسلمون قوة عظمى في جزيرة العرب وبعد فتح مكة تحققت أمنية الرسول ﷺ بدخول قريش في الإسلام ، وبرزت قوة كبرى في الجزيرة العربية لا يستطيع أى تجمع قبلى الوقوف فى وجهها ، وهى مؤهلة لتوحيد العرب تحت راية الإسلام ثم الانطلاق إلى الأقطار المجاورة ؛ لإزالة حكومات الظلم والطغيان وتأمين الحرية لخلق الله ؛ لكي يدخلوا فى دين الله ويعبدوه وحده من دون سواه .

٣- كان لهذا الفتح آثار عظيمة دينية وسياسية واجتماعية ، وقد بدأت هذه الآثار بصورة يلمسها كل من يعمن النظر فى هذا الفتح المبارك ، فأما الآثار الاجتماعية فتمثلت فى رفقة ﷺ وحرصه على الأخذ بأيديهم ؛ ليعيد إليهم ثقتهم بأنفسهم ، وبالوضع الجديد

(١) الرحيق المختوم ٣٥٢ - ٣٥٣ .

الذى سيطر على بلدهم وتعين من يعلمهم ويفقههم فى دينهم ، فقد أبقى معاذ بن جبل - رضى الله عنه - فى مكة بعد انصرافه عنها ؛ ليصلى بالناس ويفقههم فى دينهم ، واما الآثار السياسية فقد عين عتاب بن أسيد أميراً على مكة ، يحكم فى الناس بكتاب الله ، فيأخذ لضعيفهم وينتصر للمظلوم من الظالم .

وأما الآثار الدينية فإن فتح مكة وخضوعها لسلطان الإسلام قد أقنع العرب جميعاً بأن الإسلام هو الدين الذى ارتضاه الله لعباده فدخلوا فيه أفواجا .

٤- تحقق وعد الله بالتمكين للمؤمنين الصادقين بعدما ضحوا بالغالى والنفيس ، وحققوا شروط التمكين وأخذوا بأسبابه ، وقطعوا مراحلها وتعاملوا مع سنته كسنة الابتلاء والتدافع والتدرج وتغيير النفوس والأخذ بالأسباب ، ولا ننسى تلك الصورة الرائعة وهي وقوف بلال فوق الكعبة مؤذناً بالصلاة بعد أن عذب فى بطحاء مكة ؛ وهو يردد: أَحَدٌ . . أَحَدٌ فى أغلاله وحديده ، ها هو اليوم قد صعد فوق الكعبة ويرفع صوته الجميل بالأذان ، وهو فى نشوة الإيمان^(١) .

الدُّرُوسُ الْمُسْتَفَادَةُ:

تنطوي غزوة فتح مكة على العديد من الدروس المستفادة نذكر منها ما يلي:

١- لما قرر النبي ﷺ فتح مكة بعد ما نقضت قريش عهدها وتحالفت مع بني بكر على خزاعة حليفة المسلمين ، شرع فى الأخذ بالأسباب سواء كانت تلك الأسباب مادية أو معنوية لتحقيق هدفه ، وهو بذلك يعلمنا سنة الأخذ ؛ لتحقيق مبدأ مباغته قريش حتى لا يصل إليها الخبر فتعد العدة لمجاботته وصدده:-

أ- أنه كتم أمره حتى عن أقرب الناس إليه وهو أبو بكر - رضى الله عنه ، أقرب أصحابه إلى نفسه وزوجته عائشة - رضى الله عنها- أحب نسائه إليه ، وهذا المنهج النبوى الحكيم يدلنا على أنه ينبغى على القادة العسكريين أن يخفوا خططهم عن زوجاتهم ؛ لأنهن ربما يذعن شيئاً من هذه الأسرار عن حسن نية فتتقلها الألسن ؛ حتى تصير سبباً فى حدوث كارثة عظيمة .

ب- أنه بعث سرية بقيادة أبى قتادة إلى بطن إضم ، وهذا يوجه القادة إلى أخذ الحذر

(١) السيرة النبوية للصلاحي (٢ / ٤٨٧) .

- وسلوك ما يمكن من أساليب التضليل على الأعداء لتحقيق الهدف والسلامة من كيد الأعداء .
- ج- أنه بعث العيون لمنع وصول المعلومات إلى الأعداء ، ليحرم عدوه من الحصول على المعلومات التي تفيده في الاستعداد لمجابهة المسلمين .
- د- دعاؤه ﷺ وتضرعه إلى الله بأخذ العيون والأخبار عن قريش ، وهذا يعلمنا الأخذ بالأسباب ولا ننسى الدعاء والتضرع إلى الله .
- هـ- إحباط محاولة تجسس حاطب بن أبي بلتعة لصالح قريش ، وهذه معجزة نبوية للرسول ﷺ ، فقد أطلعه الله - عز وجل - على ذلك عن طريق الوحي ^(١) .
- ٢- فى قصة إسلام أبى سفيان العديد من الدروس منها:

أ- عندما أصبح أبو سفيان رهينة بيد المسلمين وأصبح رهن إشارة النبي ﷺ كانت المفاجأة الصاعقة له بدل التوبيخ والتهديد والإذلال أن يدعى إلى الإسلام ، فتأثر بهذا الموقف ، فلم يملك أن قال: بأبى أنت وأمى يا محمد ، ما أحلمك! وأكرمك وأوصلك! .

وعندما قال العباس للنبي ﷺ : إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً ، فقال النبي ﷺ : «نعم من دخل دار أبى سفيان فهو آمن» ففى تخصيص بيت أبى سفيان شيئاً يشبع ما تتطلع إليه نفسه ، وفى هذا تثبيت له على الإسلام وتقوية لإيمانه ، وهذا الأسلوب يمتص الحقد من قلب أبى سفيان ويبين له أن المكانة التى كانت له عند قريش لن تنقص شيئاً فى الإسلام ، إن هو أخلص له وبذل في سبيله ، وهذا منهج نبوي كريم على العلماء والدعاة إلى الله أن يستوعبوه ، ويعملوا به في تعامله مع الناس .

ب- وفي قول رسول الله ﷺ لعنه العباس عن أبى سفيان: «أحبسه بمضيق الوادي حتى تمر به جنود الله فيراها» وقد أراد بذلك شن حرب نفسية على قريش وزعيمها لبيان مدى قوة ما وصل اليه الجيش الإسلامي من تسليح وتنظيم ، وبذلك تتحطم أي فكرة في نفوس المكين للمقاومة وبهذا يتحقق هدف النبي ﷺ دون إراقة دماء ^(٢) .

إنها النبوة ، الكلمة التي جاءت على لسان العباس لأبى سفيان ؛ لتصبح الرد الباقي إلى يوم القيامة على كل من يتوهم أن دعوة النبي ﷺ إنما كانت ابتغاء ملك أو زعامة ،

(١) السيرة النبوية للصلاحي (٢/ ٤٥٠ - ٤٥٢) باختصار .

(٢) السيرة النبوية للصلاحي (٢/ ٤٥٧ - ٤٥٨) باختصار .

فهذه الكلمة جاءت عنواناً لحياة النبي ﷺ من أولها إلى آخرها ، فقد كانت دليلاً ناطقاً على أنه بعث لتبليغ رسالة الله إلى الناس ، وليس ابتغاء ملك لنفسه في الأرض^(١) .

٣- دخل رسول الله ﷺ خاشعاً لله ، وهو يقرأ سورة الفتح ، فكان يرجع فلا تلاوته لها ، والترجيع كيفية معينة في القراءة يترنم بها القارئ ، وهذا يدل أنه ﷺ كان مستغرقاً في حالة شهود مع الله تعالى أثناء دخوله مكة ، فما كانت لنشوة النصر العظيم إلى نفسه من سبيل ، ولم يكن شيء من التعاضم أو التجبر ؛ ليستولي على شيء من مشاعره ، إنما هو الانسجام التام مع شهود الله والشكر على نصره وتأيدته .

ويزيد من تصوير هذا المعنى أنه لما وصل إلى ذي طوى كان يضع رأسه تواضعاً لله ، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى أن عشونه ليكاد يمس واسطة الرحل .

وهذا يعني أنه ﷺ كان مندجاً في حالة من العبودية التامة لله ، إذ رأى ثمرة القيام بأمر ربه ، ونظر إلى نتيجة كل ما قد كان لقيه من العذاب من قومه ، وكيف أن الله أعاده إلى البلدة التي أخرجته عزيزاً منصوراً مكرماً! .

إنها الساعة التي ينبغي أن تمتلئ بشكر الله وحده ، وينبغي أن يفيض الزمن كله فيها بمعنى العبودية التامة لله تعالى .

وهكذا يجب أن تكون حال المسلمين دائماً: عبودية مطلقة لله تعالى في السراء والضراء ، في الرخاء والشدة ، عند الضعف والقوة ، وليس من شأن المسلمين إطلاقاً أن يتظاهروا بالذل لله تعالى كلما حاقت بهم مصيبة أو كرب ؛ حتى إذا كشف الكرب وزال الضر أسكرتهم الفرحة ، بل أسكرهم الطغيان عن كل شيء ، ومروا من جنب أوامر الله وأحكامه ساهين لاهين ، كأن لم يدعوه ويتدللوا له في كشف ضرر مسهم! .

٤- لقد كان التدبير الحكيم لرسول الله ﷺ ما أمر به أصحابه من أن يتفرقوا في مداخل مكة ؛ فلا يدخلوها من طريق ومدخل واحد ، وذلك بغية تفويت فرصة القتال على أهل مكة إن أرادوا ذلك إذ يضطرون إلى تشتيت جماعاتهم وتبديد قواهم في جهات مكة وأطرافها فتضعف لديهم أسباب المقاومة ومغرياتهما .

وإنما فعل رسول الله ﷺ ذلك حقناً للدماء ما أمكن ، ومن أجل هذا أمر المسلمين أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم ، وأعلن أن من دخل داره ، وأغلق بابه فهو آمن^(٢) .

(١) فقه السيرة للبوطي ص ٢٨٨ .

(٢) فقه السيرة للبوطي ٢٨٨ - ٢٨٩ .

وفي إعلان العفو العام عن أهل مكة بصفة عامة وعن بعض من أهدر دماءهم بصفة خاصة دليل على رحمته ﷺ ورغبته في تأليف قلوبهم على الإسلام ، كما أنه لم يُرَد أن يتعامل مع مكة كالمناطق الأخرى ، فإنها دار النسك ومتعبد الخلق وحرّم الله تعالى^(١) .

٥ - «أتشفع في حمد من حدود الله؟» هذه الجملة التي قالها النبي ﷺ لأسامة بن زيد حينما ذهب إليه يشفع عنده في المرأة المخزومية التي سرقت .

وفي ذلك توجيه نبوي للأمة ان تقيم شرع الله على القريب والبعيد عبرة للمسلمين حتى لا يتهاونوا في تنفيذ أحكام الله تعالى ، أو يشفعوا لدى الحاكم من أجل تعطيل الأحكام الإسلامية^(٢) .

٦ - وفي بيعة النساء دليل على اشتراك المرأة مع الرجل على أساس من المساواة التامة في جميع المسؤوليات التي ينبغي أن ينهض بها المسلم ، ولذلك كان على الخليفة أو الحاكم المسلم أن يأخذ عليهن العهد بالعمل على إقامة المجتمع الإسلامي بكل الوسائل المشروعة الممكنة ، كما يأخذ العهد في ذلك على الرجال دون فرق ولا تفاوت .

ومن هنا كان على المرأة المسلمة أن تتعلم شئون دينها كما يتعلم الرجل ، وأن تسلك السبل المشروعة الممكنة إلى التسلح بسلاح العلم والوعي والتنبه إلى مكامن الكيد وأساليبه لدى أعداء الإسلام الذين يتربصون به ؛ حتى تستطيع أن تنهض بالعهد الذي قطعته على نفسها وتنفذ عقد البيعة الذي في عنقها^(٣) .

٧ - والدرس المهم - أيضاً - لكل من يتعرض لأي ابتلاء أن يصبر ويرضى بقضاء الله ابتغاء وجه الله - عز وجل - على إلى أن يفرج الله كربته ، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة ، كيف أعاده الله - عز وجل - إلى بلده التي أخرج منها عزيزاً منصوراً مكرماً ؛ بعد أن صبر على العديد من الإيذاءات والاعتداءات ، وخاض العديد من الغزوات من أجل تبليغ رسالة الرسول ﷺ ورفع راية: لا إله إلا الله محمد رسول الله .

(١) السيرة النبوية للصلاحي (٢ / ٤٦٦ - ٤٦٧) بتصرف .

(٢) السيرة النبوية للصلاحي (٢ / ٤٨١) بتصرف .

(٣) فقه السيرة للبوطي ص ٢٩٦ .